

الجامعة العربية ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

أثار تكوين الجامعة العربية اهتماماً كبيراً في العالم خلال هذا العام الأخير ، وإن اختلفت وجهات النظر وتباينت البواعث إلى هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربي إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ، وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفريقي وبعض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ، ووقف العالم الخارجي بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين مرتاب في مراميها وأهدافها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينتظر ليرى ما يكون من أمرها في المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها أمر يشجع أو حادث ترتقب نتائجه وتخشى مضاعفاته ؛ فذلك كله شأن أهل السياسة . وقد يكون من الخير أن ندع ذلك إلى معالجة الموضوع من ناحيته العالمية الخالصة ، التي ترتكن إلى الأسس والمقومات كما يراها طالب الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل في هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها في وضعها الصحيح أو فيما يقرب منه ، ويكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمتها ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجي من جهة أخرى .

يحتل المشرق العربي موقعاً جغرافياً فذاً في قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هي آسيا وأوروبا وإفريقية ، التي كان لكل منها دورها الخاص في تاريخ البشرية ؛ ويمتد من سواحلها من الشمال بحرقديم كان مهداً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذي امتاز بهدوء مياهه وانتظام ريحه وانتشار جزره وكثرة تعاريج ساحله وخلجانه ، حيث قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل في هذا المشرق العربي من الجنوب ذراعان للمحيط الهندي والبحر العربي هما البحر الأحمر وخليج فارس ؛ وقد

ارتقت كلا منهما سفن الملاحة اتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق إفريقيا . ولكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تاماً بين بحار الجنوب وبحار الشمال ؛ وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ؛ فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ؛ ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببحار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية ، وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق أن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقيا قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام . وساعده على ذلك أنه كان مهذاً لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ؛ كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الإثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط لديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ، ومنه انتشرت ؛ ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصده — أو أن أجزاء منه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأولى ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . وإذا قيست أهمية أقاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر بطول الحقبة التى كان فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لكانت لهذا الإقليم المكانة الأولى بين الأقاليم . . . ولعل من الخير والإنصاف أن تتمثل هذه الحقيقة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا تقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربى فى داخلته من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تتل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ؛

فلا يستقر بها السكان إلا في عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التي سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ؛ فكان ذلك الاحتكاك المثمر في بعض الواحات ومراكز الاتصال ؛ ولقحت المدنية الخارجية حياة العزب وحضارتهم منذ البداية . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بيئتهم الفكرى إلى الخارج ؛ وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غريباً بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة في حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوى الذى تمثل في حياة النبي عليه الصلاة والسلام .

وعلى جانبي تلك النواة الصحراوية الداخلية التي تمثل قلب الشرق العربى ، والتي لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق في جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة في أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية ، أو يتوافر بها الماء من الجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لا سيما الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ؛ كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى شمال شرق إفريقيا . ففي جنوب صحارى بلاد العرب ونجدها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعمّان ، وهى كلها مراكز حضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت في اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المعينية والسبئية والحيرية في ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والحسمائة السنة اللاحقة به . ونشأت في عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشئ الكثير ؛ ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا في الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا في جنوب العراق وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فإن اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين في عمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخى قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص في العصر الجاهلى وبعد ظهور الإسلام . وكان هؤلاء الجنوبيين فضل كبير في نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى بالبحر إلى شرق إفريقيا وجنوب آسيا وجزر الملايو

وأندونيسيا ؛ فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ؛ وقد عرف الحضارة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » . ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الخالي لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، في حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضي كلها باعتبار حضرموت وُحُمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربي من ناحية الجنوب . ولا بد أن نتظر اليوم الذي تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسي مع تكوينها الجغرافي ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعاً .

كل هذا عن النطاق الذي يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالي ذو الحياة المستقرة والمدنات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، كما يمتد إلى شمال شرق إفريقيا لتدخل ضمنه مصر ووادي النيل الأوسط في السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق في جملته سهل منبسط تحف به الجبال في الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتابعة ، كان بعضها في أسفله مثل سومر ، وبعضها في وسطه مثل بابل ، وبعضها في أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت في النهاية أن تكتسح معظم أراضيه اكتساحاً ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ؛ حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيراً في أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ؛ وفي أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق في العهد العربي بمختلف أدواره أن يكون وحدة ثقافية ؛ حتى إذا ما جاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملاً هاماً في وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية في أقصى الشمال .

أما الشق الشامي من الهلال الخصيب فأكثر تعقيداً من الشق العراقي ؛ لأن الطبيعة لم تجعل معه سهلاً مستويًا تجري فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إقليمًا معقد السطح والتضاريس . ففي شماله توجد سلاسل لبنان

الشرقية والغربية، التي تفصل بين سوريا وسواحل لبنان. والاولى ذات حيضان وسهول داخلية، تتجه نحو البادية، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلى الضيق تتجه نحو البحر المتوسط، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين. وقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربى بحياة الملاحين فى شرق البحر المتوسط، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين؛ وظهرت آثار ذلك فى العهد المسيحى، وفى الكنائس الطائفية التى لاتزال قائمة حتى الآن.

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هناك شرق الأردن وفلسطين؛ وهما فى الحقيقة يمثلان منطقة واحدة، وإن كان يقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت إلى شطرين، داخلى هو شرق الأردن، وساحلى هو فلسطين. وقد يكون من المهم هنا أن نلاحظ الفرق الكبير فى التكوين الطبعى بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية؛ فالأول رملى منخفض تكثر به الرواسب، ويكاد يخلو من المرافئ الطبيعية الصالحة، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التى كانت تحترقه أو تسير على طولها وترتبط ما بين مصر وشبه جزيرة سيناء من ناحية، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى. أما ساحل لبنان من حيفا شمالاً فصخرى فى أكثر أجزائه، ويوجد به عدد من المرافئ الطبيعية التى استخدمت فى العصور القديمة مثل صور وصيدا، والتى لاتزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت. وقدمثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحرى الأساسى لتجارة الشق الشامى من الهلال الخصيب؛ واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور. فكما تحكّم الفينيقيون فى تجارة مملكة سليمان البرية التى كانت تشمل أراضي فلسطين والشام الداخلية، كذلك استمرت موانى لبنان ومرافئه الساحلية متحكمة فى تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسيطة، ولا تزال فى الوقت الحاضر تلمس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) فى تجارتها البحرية. ولذلك كله فقد يكون من الخير فى معرض الحديث عن التكوين السياسى والقومى لكل من سوريا ولبنان أن نجمع بين حقيقتين لاسبيل إلى الأخذ بإحداها دون الأخرى: فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمى والتاريخ الثقافى تقضى بأن يكون لكل منهما كيانه القومى والسياسى المستقل.

وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضى بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقين التوأمين في أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمنعناها الجغرافي الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق إفريقيا وجدنا أرض وادى النيل ، التي ارتبطت في تاريخها الطويل بالشرق الآسيوي المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج في بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق أن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق إفريقيا وجنوب غرب آسيا ؛ فهي كلها تؤلف إقليمًا جغرافيًا واحدًا ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ؛ فاعدت طريقًا طبيعيًا سهلًا يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالي لشبه جزيرة سيناء ، حيث تسقط الأمطار في فصل الشتاء فتتشربها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، وتخترنها لتغذى بها المياه الجوفية طوال العام ؛ وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سيناء الشمالي هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التي جاءت من الشرق إلى مصر في أيام قدماء المصريين ، كالهكسوس وغيرهم ؛ ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامي ؛ وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب في أعصر التاريخ المختلفة . ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ؛ فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البري الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين بوصفها الحالى هي الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى . فحدودنا البرية من الشرق لا تلاصق بلدًا غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البري بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين . وإذن فإن فلسطين إن هي بقية خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزاً حقيقياً بين مصر وبقية بلدان الجامعة ؛ فيعوق مثلاً تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق

مرور أنابيب البترول الحجازية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أو غير ذلك من الحالات التي قد تبدو افتراضية محضه في الوقت الحاضر ، ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة إذا لم تنل فلسطين ما يريده لها العرب من كيان سياسي عربي مستقل .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ؛ فهي تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ؛ وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربي كله . وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب ، وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها في أيدٍ صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية ، فإنهم لا يضمنون شيئاً بالنسبة لكيان الجامعة كلها من الناحية العسكرية . ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها ؛ فهي كما ذكرنا تقع وحدها في جانب من فلسطين ، ويقع باقي أعضاء الجامعة في الجانب الآخر ؛ كما أن فلسطين وشبه جزيرة سيناء كالأعلى الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر ، وطريق غزوات تاريخية كثيرة آتتنا من الشرق أيام قدماء المصريين والفرس والإغريق والعرب والأتراك ؛ وحتى الإسكندر الأكبر نفسه الذي بدأ حملاته من بلاد مقدونية واليونان ، أتى مصر عن طريق فلسطين ؛ فقد كان غزو مصر من هذه الجهة سهلاً ميسوراً ، بل كان فيما يبدو أسهل من غزوها بطريق البحر .

ومع ذلك فقد يفيد أن نضيف هنا أن مصدر الخطر بالنسبة لمصر يتعدى فلسطين إلى ما وراءها من جهة الشمال . ومن الحقائق العسكرية القديمة أن من يريد أن يدافع عن مصر إنما يجب أن يقف فوق تلال سوريا وجبال لبنان . وقد كان «تحتس» الثالث أول من أدرك هذه الحقيقة من العسكريين القدماء ؛ فرأيناه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد يقوم بحملاته السبع عشرة المشهورة إلى فلسطين أولاً ، ثم إلى لبنان وسوريا ثانياً ، ليؤمن حدود مصر من هذه الناحية . ولعل هذه الحقيقة التي أدركها تحتس منذ خمسة وثلاثين قرناً قد عادت فبرزت في أيام المهاليك عندما دافع سلاطين مصر عنها في عين جالوت ؛ ثم في حمص وغيرها وردوا عنها خطر الغزو المغولي ؛ ثم برزت مرة أخرى في ثوب جديد في أيامنا نحن عندما وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى مهاجمة سوريا ولبنان

خشية أن يوطد المحور أقدامه فيها فيكون مصدر خطر حقيقي بالنسبة لمصر والشرق العربي جميعاً .

على أن الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربي ؛ ولا عند أنها تكون جزءاً أساسياً من هذا الإقليم الذي تشغله بلدان الجامعة ؛ وإنما يجب في الوقت نفسه أن نلاحظ أن مقومات الحياة في مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوي ، هي وادي النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » في هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها في الجنوب استمسكها بصلاتها ومصالحها في الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق ؛ ولما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة واحتكاك الفكر وانتشار الثقافة ، كان الاتصال بين مصر والجنوب قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً وعلى شيء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية في ربوع السودان ، بل تخطوه إلى بلاد أخرى في شرق إفريقيا ؛ وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهي مهما طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله — به أن يوصل بين مصر والسودان . . . وإلى أن يتم ذلك ينبغي أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، والتي لا يمكن تجاهلها ، وهي أن مصر لن تجد أمنها كاملاً إن هي اكتفت بتحقيق صلاتها المكيننة مع الشرق العربي الآسيوي دون أن تستكمل وحدتها في الجنوب ؛ وأن هذا الشرق العربي ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معاً عضواً أساسياً عاملاً في جامعة أممه الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة ، نستطيع أن نعرض في إيجاز لتاريخ الحركة التي انتهت بتأليف الجامعة ؛ فقد ينير ذلك التاريخ سبيلنا في تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها ، واستشفاف بعض ما قد ينتهي إليه أمرها في المستقبل . وهذه

الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بطيء في الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربي في الشرق القريب ، وتطور بطيء أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) في علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامي عامة بالعالم الخارجي . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداية بحركات سياسية كبرى صحبت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة ؛ ورغم تقلب السيادة وانتقالها في النهاية من أيدي العرب إلى أيدي الأتراك ، ودخول الشرق أثر ذلك في عيش مظلم سادته الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الإسلامي في مجلته باستقلاله السياسي خلال قرون ثلاثة أو تزيد ؛ حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر ، وجاء نابليون بمحملته المشهورة على مصر والشرق العربي كان ذلك فاتحة عهد جديد ؛ إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامي ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربي نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت في غرضها المباشر من احتلال مصر وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم في الهند ، فإنها كانت نقطة تحول في التاريخ عامة ، وفي تاريخ اتصال الشرق بالغرب والعالم الإسلامي بأوروبا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعده حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربي والتوسع السياسي على حساب العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدي اطراد الضغط والتوغل في بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسي ، فنشأت في الربع الأخير من القرن الماضي حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغاني ، وهي حركة « الوحدة الإسلامية » ، التي رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعاً للخطر الأجنبي . وقد فسرت هذه الحركة إذا ذاك تفسيرات مختلفة ؛ فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامي القديمة ، وإنها تنطوي على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوروبا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التعصب وتغذي عناصر الحقد والكراهية التي لا بد أن تجر الشرق والغرب في النهاية إلى التطاحن والحرب . وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نقضاً في الهواء يثير الزوابع المحلية ولكنه لن يستطيع أن يبعث في الشرق روح الجهاد كما بعثها

ظهر الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية ، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ؛ ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسي الكامن في هذه الحركة كان أقوى من الدافع الديني الظاهر ، من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحولت وانقلبت بالتدرج في أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين في داخل العالم الإسلامى ، وهما حركة الوحدة الطورانية أو التركية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى .

والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية فى الوعى السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضغط أوروبا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ الحركة العربية مظهرًا دينيًا ؛ وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداية . ولكنها كانت بذلك أدعى إلى القوة ، وأدى إلى الحقائق العملية من الحركة الإسلامية الأولى ؛ فضلاً عن أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ؛ وكانت أجزاءه أكثر تقارباً وتماسكاً ، وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة ، والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصلح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية . وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عندما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمساوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان الأتراك ، ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقيًا جزئيًا محدوداً ، وفى

المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كنجدا أو المتزوية وغير المعروفة كالمين الأعلى . أما السواحل العربية والمناطق الهامة في المرور والمواصلات أو الغنية بموارد الزيت وغيرها فقد امتدت إليها الأيدي عارية سافرة أو مُقَفَّرَة مستورة ؛ فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ؛ وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ؛ بعد أن حاولت أمريكا أن تكون لها يد ، ثم كفت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفي هذه الأثناء كان الوعي السياسي في الشرق العربي قد دخل في المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحديث ؛ إذ أخذ الشعور القومي المحلى يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ؛ وأخذت فكرة « الأمة » تبلور في أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم يعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك في الدين ، كما كانت الحال في المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك في اللغة والثقافة ، كما كانت الحال في المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ؛ وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التي تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابه بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التي اصطنعتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة في أوروبا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربي قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . فمشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه في صورته النظرية ؛ كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفي أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ؛ خصوصاً إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل النضج السياسي وتباينت نظم الحكم في مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية مالم يثبت أن جاءت بعنصر جديد ؛ أو هي بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانوياً ، إذ به يصبح في الحرب الثانية ميداناً أساسياً من ميادين القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلاً وحاسماً في تقرير مصير الحرب

كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، بكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ؛ ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعا جغرافيا بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ؛ وما تسابقت الأمم المتحاربة الكبرى في زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمتها الفاصلة في كل ما يتصل بالسيطرة العالمية في الحرب والسلام على السواء . وما دام الأمر كذلك فإن مصائر الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية . ولن يفيد في مثل هذا الموقف الدولي أن يكون لكل وطن صغير في الشرق العربي استقلاله القومي ؛ فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التي قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هي قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتى الريح الصرصر على كل شيء ، وتطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد

في هذه الظروف بدأ القائمون على شؤون أمم الشرق العربي يدركون ضرورة إيجاد نوع من التعاون بينها جميعا ؛ لعل ذلك يشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون ، أن بريطانيا التي تجتمع لها من الخبرة والتجربة في شؤون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل سياستها التقليدية ، وإلى أن تسير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فأعربت عن عطفها غير المباشر على ما قد يبذله قادة الشرق العربي أنفسهم من مسعى في سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف وتسابقت الحوادث حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية التي نحن بصددنا الآن .

على أن من المهم أن نلاحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالي تعتبر خروجاً واضحاً على مبدأ « الوحدة » العربية كما كان مفهوماً من قبل . وقد تقدمت شعوب الشرق العربي حينئذ نحو الاستقلال القومي ؛ فنظرت — أو نظرت فريقت منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومي في كثير من

الأشياء، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص في الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع معه قادة الشرق أن يفكروا حتى في إقامة «اتحاد» من الأمم أو القوميات العربية على نحو ما مجد في الولايات المتحدة الأمريكية، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية. وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء «بجامعة» تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاركة الحرة وفي حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين، تحقيقاً للمصالح المشتركة، وضماناً لما عنى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لا بد أن يترتب على اجتماع كلمتهم في عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة مجد فيه صدى ولا تردداً.

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة كما أخذ به كان خير مما يمكن السوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة، وبين ما استجد على الشرق العربي وأقاليمه من وعى سياسى قومى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى. وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح، وأن السياسة التى أملتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق. بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام أداة صالحة لتحقيق التعاون الدولى فى هذا الإقليم الذى يعتبر محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال كثيرة أعضائها الحاليين، وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التى لا تزال خارج الجامعة، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها فى يوم من الأيام.



وبعد فإن الشرق العربى كان منذ أقدم العصور مدرسة للإنسانية فى كثير من الأشياء. ففيه نشأت غير واحدة من المدن القديمة؛ وفيه ظهرت الأديان السماوية، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال؛ وفيه احتك الشرق بالغرب، فتعارف الاثنان، وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم. وقد مر الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجارب والأحداث؛ ولا

شك أن تاريخه القابل سيحفل بمثل ما حفل به ماضيه . وربما كان مرجع الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار في هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة في الحياة والحكم والثقافة ؛ وكل جديد فيها لا بد أن يتسق مع القديم الذي لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعياً ألا تستقر النظم الجديدة في سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربي يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ؛ فهو يحاول أن يوفق في نظامه السياسي بين القومية الضيقة التي ترتبط بوطن معين ، وأمانى قومية لا تخلو من أنانية ، وبين التعاون الدولي في جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدي هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومي ، وتلطيف روح العصبية الإقليمية ، على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هي مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هي نجحت — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجي بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتذى في مناطق مشابهة من العالم ، كأريكا اللاتينية ، التي تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، في اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ؛ أو كأهم جنوب شرق أوروبا ، التي تشترك في الموقع الجغرافي والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت في الجنس والثقافة . . . ومن يدرى ! لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً في التنظيم والعلاقات الدولية يضيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية والعالم في تاريخه الطويل من دروس ! .

سلامة حزين